تستهدف بث الخوف والرعب والإحباط في نفوسهم: جـرائم التعذيب في 'أبـو غريب' والحرب النفسية ضد العرب والمسلمين

30-5-2004

ولاشك أن إرباك أداء الإنسان المسلم هو هدف جوهري أيضاً للحرب النفسية التي يمارسها الغرب، والتي تستهدف تشجيع الشعور بالنقص، والاعتقاد بعدم الكفاءة وقلة الثقة بالنفس بين المواطنين. وتؤدى زيادة الضغوط مع الفشل فى التعامل معها، إلى إضعاف وظائف الإنسان وإرهاقه وكذا شعوره بالقلق والخوف وفقدان الثقة بالنفس، وهى حالة تؤدى فى محصلتها النهائية إلى تدنى الأداء فى عموم المواقف الحياتية، وهذا

بقلم عبدالله صالح

حظيت جرائم التعذيب الأمريكية ضد العراقيين في سجن أبو غريب باهتمام إعلامي واسع، وتباينت الرؤى والتحليلات بشأن تفسير ما جرى ومن المسئول عنه وتداعياته المختلفة، ولكن هذه التحليلات لم تتطرق في معظمها، إلي الآثار النفسية لعمليات التعذيب، والتى استهدفت بالأساس إذلال العراقيين وجرح كرامتهم وامتهانهم، وألقت بظلال قاتمة على الأحوال النفسية للشعوب العربية والإسلامية التى طعنت في شرفها وكبريائها، وغلت الدماء في عروقها وهى تتابع على شاشات التلفاز وعلى صفحات الجرائد والمجلات مشاهد الإذلال والمهانة التى تعرض لها إخوانهم العراقيون في سجن أبو غريب.

ولعل عدم إيلاء هذه القضية الاهتمام الكافي من جانب مثقفي الأمة ومفكريها على وجه الخصوص يشكل نوعاً من الهروب وتجنب المواجهة مع أمر مزعج ومنفر، يثير فى كوامن أنفسنا ذكريات مؤلمة، ما برحنا نجترها ولا نريد العودة إليها، لأنها تذكرنا من جديد بتلك المجابهة التى أخفقنا فى اجتيازها المجابهة مع الفشل، مع مواطن الضعف، ومع الأزمات الداخلية والخارجية التى تختزنها الذاكرة العربية والإسلامية.

(حرب افتراضية)

لاشك أن الآثار النفسية التى ستتركها مشاهد التعذيب وجرائم الاحتلال الأمريكي في العراق لن تتوقف على العراقيين، وإنما ستمتد إلي كافة ربوع الوطن العربى والإسلامي بحكم طبيعة التكوين الاجتماعي والثقافي والجغرافي للأمة العربية والإسلامية، التي يرتبط كيانها الثقافي، على نحو يجعل عملية الفصل بين ما يجرى فى أحد أقطارها وباقي الأقطار أمراً بالغ التعقيد، ولعل في طبيعة التقدم التكنولوجي في مجال الاتصالات، والمتمثل فى نقل الخبر حياً وبالصورة ما يبرر أخذ البعد النفسي في الاعتبار، فلم تعد الشعوب بمعزل عما يدور فى العالم، الذي أصبح بدوره قرية صغيرة ، ولم تعد الحكومات قادرة على فرض رقابة بوليسية على سيل الأخبار المفزعة ، ومشاهد القصف والدمار ، والمجازر الجماعية التى يتعرض لها العرب والمسلمون فى شتى أنحاء العالم.

ولا تنفصل عملية نشر صور التعذيب والممارسات الوحشية البشعة ضد العراقيين عن الحروب التى تدار ضد العرب والمسلمين اليوم، والتى تستهدف بالأساس البنى الثقافية والاجتماعية للشعوب، وتعتمد على تكنولوجيا الإعلام والاتصال، وليس فقط الأسلحة التقليدية أو حتى أسلحة الدمار الشامل أو الأسلحة الذكية، على نحو ما يشير إليه البعض بـ الحرب الافتراضية CYBER WAR ، وفى هذا الإطار يجرى الترويج لمفاهيم تتعلق بقوة وهيمنة الخصم وما يمتلكه من قدرات هائلة على السيطرة والتحكم ، فى مقابل السعي لفرض قيم الخوف والخضوع والإحباط.

(خلق الأزمات)

ويتم استخدام لغة لا تعدو كونها غطاءً كثيفاً من قنابل الدخان لتغطية لغة أكثر وضوحاً وهي تحديداً لغة المصالح، حيث يتم احتكار الكلمات وتفسيرها وتأويلها، فتفقد اللغة أهم وظائفها فى الإبلاغ والإفصاح، ويغلب عليها الإخفاء والتضليل، ومن هذا القبيل تستخدم عبارات مثل الإرهاب، الشرعية الدولية، حقوق الإنسان، وذلك فى إطار تأويلات معينة فى مناسبات بعينها، وتصاغ عبارات لمساندة هذا التأويل، مثل المحافظة على النظام الدولي، ورعاية السلوك الدولى المتحضر كما يراه فى عالم اليوم الكبار والأقوياء.

وهكذا يتم خلق الأزمات وتعقيدها، من جانب الولايات المتحدة وحلفائها كوسيلة ضغط على الحكومات والشعوب بعد أن بات أكثر من نصف العالم فى قبضتها، نتيجة لحاجة البعض إلى استثماراتها ومساعداتها لدعم اقتصاده، والبعض إلى تواجدها العسكري لتعزيز أمنه واستقراره ، والبعض الآخر لمواقفها السياسية لتأكيد شرعيته ، وآخرون لتقنياتها المطورة لدعم مسيرتهم التنموية واستمرار بقائهم.

(معركة نفسية)

وفى ظل هذه الحقائق، تجري عملية الغزو الفكري، والمعركة النفسية، من خلال تقنيات الاتصال التي تتطور بسرعة مطردة لا تسمح بالتوجه للتعامل معها على أساس المنع والتشويش، ويتم استغلال الخصائص والتناقضات التى تعانى منها المجتمعات الإسلامية، وأهمها اختلال منهجية التفكير، ويقصد بذلك سوء التنظيم الذهني في التصدي للواقع، حيث التعامل مع الواقع يتسم بالفوضى والعشوائية والتخبط، لذا تقع الشعوب المسلمة في الغموض والحيرة، مما يجعلها تلجأ للتمنيات بالخروج بحلول سحرية لما تواجهها من مشكلات.

كما أن عقلية شعوبنا العربية والإسلامية عاجزة إلى حد كبير عن الغوص فى تحليل الظواهر عمقاً واتساعاً، لأن هذا يتطلب جهداً وتركيزاً كبيرين، وهذا لا يتناسب مع حاجتنا إلى نتائج سريعة وآنية وشبه سحرية، ولعل هذا ما يقف وراء هبات الحماسة التى تعج بها الشوارع والميادين استنكاراً وشجباً، لكنها سرعان ما تخبو، وهى السر وراء الانجراف الشديد وراء الشعارات البراقة، حتى لو أطلقها

من ثبت عجزه وتردده فى المواقف المصيرية.

كذلك فإن المجتمعات العربية والإسلامية ترزخ تحت عبء انفعالاتها التى تفيض على العالم ملونة إياه بصبغة ذاتية واضحة المعالم، وقضاياها تعاش من خلال الذات، ولذلك فإن درجة الموضوعية تنحسر فى معظم الأحيان، بما يجعلها فاقدة السيطرة على الواقع ، ويدفع بها إلى الارتماء في التفكير الخرافي والسحري كوسيلة وحيدة متبقية للخلاص من الأزمات التى تعانيها.وطغيان الانفعالات على هذا النحو يضع الشعوب أمام الحاجة الملحة للتخلص من ضغطها وما تخلقه من توتر داخلي صعب الاحتمال، ومن أهم الوسائل النفسية للخلاص من هذا التوتر ما يسمى "بالإسقاط" الذي يسمح بتصريف الانفعالات من خلال صبها على الخارج، على العالم وظواهره، وعلى الأشخاص والعلاقات معهم، سواء بسواء.

(تناقضات داخلية)

وتتسم العقلية العربية والإسلامية أيضاً بافتقاد المرونة، والميل لإصدار أحكام قطعية نهائية على الأشياء، وطغيان النمط الأرسطي في التفكير، والذى يقوم على أساس مسلمات وبقينيات فكرية تتحكم في قناعتنا، وخطورة مثل هذا النمط فى التفكير أنه لا يستطيع إدراك طبيعة اللعبة السياسية ذات التقاطعات والمفاصل المعقدة، والتي لا يوجد فيها صديق دائم ولا عدو واضح، ومن ثم تعجز العقلية العربية عن استيعاب هذا التناقض.ويتم على سبيل المثال، تفسير الاحتلال الأمريكي وممارساته على أنه مؤامرة على بلادنا، بدلاً من رده إلى تناقضاتنا الداخلية وعناصر الضعف فى نظمنا السياسية، وإلى القمع المزمن الذي تعانيه مجتمعاتنا.

ولاشك أن إرباك أداء الإنسان المسلم هو هدف جوهري أيضاً للحرب النفسية التي يمارسها الغرب، التي تستهدف تشجيع الشعور بالنقص، والاعتقاد بعدم الكفاءة وقلة الثقة بالنفس بين المواطنين. وتؤدى زيادة الضغوط مع الفشل فى التعامل معها، إلى إضعاف وظائف الإنسان وإرهاقه وكذا شعوره بالقلق والخوف وفقدان الثقة بالنفس، وهى حالة تؤدى فى محصلتها النهائية إلى تدنى الأداء فى عموم المواقف الحياتية، وهذا ما يسعى إليه الغرب في محاولاته الضغط على مجتمعاتنا عن طريق الأعلام والفضائيات وبرامجها ذات الطابع التشويهي بوسائل متعددة وحجج مختلفة.

(فراغ نفسي)

وقد واجهت بعض البلدان العربية والإسلامية أزمات وتحديات ليست بالقليلة، بدأت مع نهاية الستينات واستمرت حتى وقتنا الراهن، فكونت احساساً بفشل بعض النظم السياسية السائدة في حل مشاكل الإنسان وتلبية طموحاته، وهو فراغ نفسي دفع كثيرا من المتألمين إلى محاولة ملئه بالتوجه إلى الدين بشكل مغال فيه طلباً للخلاص والحلول البديلة، وكاستجابة لذلك قوي العمل السياسي الإسلامي حضورا وتنظيماً ، بمستويات حاول الغرب استغلالها بدعم بعض أطرافه غير الرصينة دعماً مباشراً ، بغية توجيه تطرفه وفق حسابات تؤمن المصالح الغربية ، وقد حققوا نجاحاً ملموساً فى أماكن عدة من المجتمعات الاسلامية.

كذلك فإن فشل الكثير من البلدان العربية والإسلامية فى إشباع الحاجات الضرورية لشعوبها، سواء كانت حاجات بيولوجية أو نفسية، وتكرار ذلك الفشل، يؤدى إلى الشعور بالإحباط، وهي حالة نفسية تستثير العدوان، الذي عادة ما يوجه داخل الإنسان حيث الرغبة فى إيذاء الذات والعزلة والاكتئاب، أو نحو الخارج أي إلى الآخرين أشخاصاً كانوا أو مؤسسات ودوائر حكومية، حيث الميل إلى التخريب المادي المباشر مثل التجاوز على الممتلكات العامة وغيرها من أعمال متنوعة، والتخريب النفسي غير المباشر مثل عدم الإخلاص فى العمل وتجنب تحمل المسئولية، ووضع العراقيل أمام تقدم الآخرين، وغير ذلك من فعاليات تغري البعض لوضعها أهدافاً لحربهم النفسية الموجهة للعالم الإسلامي.

(الشعور بالذنب)

ولاشك أن نشر صور ومشاهد التعذيب والامتهان الذي تعرض له العراقيون، سوف يترك آثاراً نفسية عميقة لدى الشعوب العربية والإسلامية، تتراوح ما بين الغضب والعدوانية والعصبية، كما تؤدى أجواء الإحباط التى يعيشها البعض إلى زيادة الشعور بالذنب تجاه إخوانهم المسلمين، وما يتعرضون من إذلال وترويع بحيث يصبح هذا الشعور لديهم مصدر متعة ولذة، ويتم احتساء مرارة الكوارث والمصائب كمشهد يومي، ويصير الألم جزءاً لا يتجزأ من شعور الكثيرين حيث يتحول إلى إكسير للحياة اليومية، وتصبح عملية جلد الذات متعة لا تقاوم.وقد يلجأ البعض إلى العزلة والانسحاب واللامبالاة ، وتجنب الأفكار والصور والأشياء المرتبطة بالأزمات والأجواء المحيطة، فيقرر عدم قراءة الصحف والمجلات والامتناع عن مشاهدة التلفاز ، أو توجيهه إلى قنوات ترفيهية بالأساس ، لتجنب رؤية مشاهد الحرب والاغتيالات وغيرها من المشاهد التى تثير لديه مشاعر الإحباط.

إن علينا كأمة أن ندرك كيف يتحرك العالم من حولنا، وأن نفهم تناقضاته، دون أن نقبل بها بالضرورة، وهذا يتطلب عملية مراجعة شاملة لكافة مقوماتنا الثقافية والمعرفية والسياسية وحتى التراثية، ليس من أجل النوح والبكاء، ولا من أجل التفاخر والتباهي بأمجاد صنعها الآباء، ولكن من أجل التعامل الواقعي مع معطيات الحاضر، بهدف اقتناص الفرص التى يتيحها وتعظيمها، ومواجهة التحديات والمخاطر التى يفرضها وتقليلها إلى أقصى مدى.